المجلس العلمي

المحاضرة الثالث عشر (13):
الواقع الاقتصادي ببلاد شنقيط (موريطانيا)

عناصر المحاضرة:

- تمهيد
- قطاع الزراعة: الرعي وأهم المحاصيل
- الملكيات الزراعية
- التجارة
- خاتمة

تقديم:

يمكن الحديث على أن الاقتصاد الشنقيطي كان متواضعا لكنه يعتمد على إمكانيات هامة لساكنة المنطقة بحكم الموارد الطبيعية المتواجدة والموقع الذي تتميز به جعل منها طريقا استراتيجيا.

1-قطاع الزراعة:

انطلاقا من طابع المنطقة فإن حرفة الرعي هي الأكثر استئثارا بالنشاط الإنساني في هذا القطر حيث يعد الرعي سمة مميزة لكل المجتمعات البدوية والصحراوية.

أ-الرعي: عمل غالبية أهل شنقيط بالرعي لوفرة المراعي الطبيعية، ولأن النشاط الرعوي هو الأكثر تناسبا مع البيئة الشنقيطية؛ فقد اكتسب الرعي أهمية بالغة في المجتمع الشنقيطي خاصة مع ضعف النشاط الفلاحي نتيجة لضعف مقوماته في بلاد شنقيط.

كان للماشية أهمية اقتصادية واجتماعية نتيجة سيادة نمط الإنتاج الرعوي لسكان الصحراء ، وفضلا عن هذا فإن الرعاة كانوا يستطيعون الهروب بماشيتهم تحت وطأة الاضطرابات والمطاردات التي كانوا يتعرضون لها بين الحين والأخر لقدرة الماشية على الانتقال من مكان لأخر بسهولة. كما كان للرعي أهميته الكبيرة بفضل الفوائد المتعددة للحيوانات، فبالإضافة لتغطية الماشية من الإبل والأبقار والأغنام والماعز لجزء كبير من الاحتياجات الغذائية لسكان بلاد شنقيط وخاصة من اللحوم والألبان.

استعملت الإبل والحمير والخيول كوسيلة نقل للإنسان وللبضائع، كما أنها مثلت مصدرا مهما من مصادر الدخل لمالكيها ، فالتاجر أو الفلاح الذي لم يكن يملك دابة لنقل بضائعه كان يقوم بكراء دابة من مالكها .

ب-الفلاحة: تنقسم موريتانيا طبيعيا إلى منطقتين:

أ- **منطقة سهلية زراعية في الجنوب** تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى أدغاغ في مالي شرقا، ومن نهر السنغال جنوبا إلى خط عرض 17 شمالا، و تتكون من مناطق القبلة، افطوط ، والركيبة والحوض. تمتاز هذه المنطقة بسقوط كميات من الأمطار الموسمية، توفر فيها المراعي الكافية لتربية المواشي من غنم وبقر وإبل كما يتم فيها نشاط زراعي منذ أقدم العصور ولذلك يتركز فيها معظم السكان.

ب- **منطقة صحراوية جبلية في الشمال** وتقع فيها بعض الواحات الهامة التي يزرع فيها النخيل والحبوب في واحات أدرار وتكانت.

لم يكن النشاط الزراعي من الأنشطة البارزة في بلاد شنقيط، وظل هذا النشاط بدائيا حيث أن أغلب البلاد الصحراوية تتألف من تلال وسهول حجرية، ولذا تركزت الزراعة في الجنوب حيث السهول الخصبة على ضفاف نهر السنغال كسهول شمامة وبراكنا. وقد أفاد كابولاني في تقريره أن أغلب أرض شنقيط غير صالحة للزراعة، باستثناء عدد قليل من الوديان، ولاسيما في شمال وادان التي تتوفر بيها الأرض الصالحة لزراعة الحبوب ، لخصوبة أرضها ووفرة المياه. وتساعد النوازل في الحديث عن الملكيات الزراعية وعلاقات الإنتاج الزراعي ، وأهم المحاصيل في بلاد شنقيط[1].

- **الأشجار:** لعل من أبرزها واحات النخيل، ومن أشهر واحاته: آدرار ، تكانت ، العصابة و يذكر البكري أن عدد الأشجار فاق 20 الف نخلة في أزوقا قرب أطار في عهد المرابطين . ومن أنواع التمور: التمر الأحمر، التمر الأسود ... إضافة إلى أشجار أخرى مثل **أيروار**(**أورور**) هو شجر العلك (الصمغ العزلي) و**الحناء** التي توجد في آدرار والعصابة وفي شمامة و**الحلفاء** التي تنبت في البلاد المرتفعة حيث الرمال ومن سعفها تعمل الأطباق والحبال .

-المحاصيل الزراعية:

- **الذرة** : ومن أنواعها البشنة و متر : تزرع في واحات آدرار و تكانت و الدلاح.
- **القمح والشعير:** يزرعان بكميات قليلة تحت النخيل.
- **آدلكان:** نوع من اللوبيا، وتزرع على شواطئ النهر تسقى بمياه الفيضانات وفي الداخل بمياه الأمطار.

ومن أهم المناطق الزراعية المشهورة: شمامة التي تزرع بمياه السنغال، ولعكيلات و كركل ودمان.

2- الملكيات الزراعية في بلاد شنقيط: يمكن تقسيم هذه الملكيات إلى نوعين كالتالي:

أ. ملكية السيطرة والنفوذ (الدولة): كان العرب هم أصحاب القرار والفعل السياسي ومحتكري السلاح وإدارة العنف في البلاد نظرا للصراع الضروري بين أهل السلاح وأصحاب السلطة السياسية. ولا شك أن لتلك المنزلة التي حصلوا عليها بفضل وظيفتهم الاجتماعية تداعياتها المرتقبة وخاصة في تراكم الثروة والتحكم في الغنيمة اللذين تمثل فيهما الأرض نصيبا كبيرا.

غير أنه لم يكن المجال الترابي للإمارة الحسانية منعدم التحديد وذلك نظرا للطبيعة السياسية الهشة وافتقارها إلى التنظيم الإداري، ونتيجة لإرادتها في التوسع ودوام الحروب بالإضافة أيضا إلى طغيان نمط الحياة البدوي على السكان حيث الملكيات القائمة مائعة المعالم وذات طابع عرفي غير صارم.

إن أسباب تملك هذه الفئة للأرض، كانت تأتي بالأساس من طرق ثلاث هي الغزو والإجلاء والدفاع التي تعني فرض السيادة السياسية على المنطقة ذاتها[2]. وكانت هناك تقاليد راسخة تفرض على أهل الشوكة حقوقا

---

[1]- إيمان رجب زكي تمام، أضواء على الأنشطة الاقتصادية في بلاد شنقيط من خلال النوازل الفقهية دراسة لنوازل القرنين 12-13هـ / 18-19 م، مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، ع 34، ص 1862 ومايليها.

[2] بن البراء يحيي، ملكية الأرض في موريتانيا، أبعادها الاجتماعية والسياسية دراسة في النصوص الفقهية والوقائع، ط1 ، معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط، 1999 ، ص 73 .

على الأرض في شكل ضرائب سنوية. بسبب غلبتهم العسكرية والسياسية عليها، ثم الدور المنوط بهم ولو نظريا من حماية للفئات الغير مسلحة المقيمة في مجال سيادتهم الترابي.

ب- ملكية الإحياء والتعارف (القبيلة): إذا كانت فئة أهل الشوكة تدعى ملك أغلب الأراضي الموريتانية بسيطرتها العسكرية والسياسية عليها، وما ينجز عن ذلك من واجبات وحقوق مترتبة، فإن فئة الزوايا ومن شاكلهم من غير المسلحين يدلون من جانبهم بحجج كثيرة لإثبات تملكهم للأرض واختصاصهم لها دون سواهم بالموارثة.

وبما أن الملكية العقارية تفترض بالضرورة وجود مجالات محجوزة ومعرفة، فهي تقوم على تدقيق صارم في المساحة والكم، وهذا يتنافى بالإطلاق مع أسلوب الحياة البدوية الذي لا يعرف أصحابه الاستقرار والقطن ويجعل تتبع أماكن الماء والمرعى، ضرورة حيوية لامتصاص منها وعلى هذا الأساس تكون حدود الملكيات الأرضية الجماعية غير ثابتة القدر في أغلبها ومائعة المعالم.

3- التجارة:

كانت تجارة بلاد شنقيط في القديم رائجة وأعظم ما يتاجرون به الملح إلى السودان وتمثلت المواد في كل ما يباع عند السودان كالملح والخيل والثياب والزرع والعبيد. حتى يقال: أن العبد كان يباع بحذائه أي نعله. وأن الملح يقطع على هيئة اللوح الكبير، فيشد بالحبال ويوضع على ظهر الجمل وإذا صار إلى السودان يحمل تحت قدم العبد منه مقدار نعل، فيكون قيمة له.

يقطع هذا الملح من سبخة " آجل " وهي تبعد عن مدينة شنقيط بنحو خمسة أيام أو ستة، وأهلها المالكون لها هم "كنته" ويدفع الناس لهم ثمنا قليلا جدا بالنسبة إلى ما يبيعونه، ويسافر الناس من الحوض و تيشيت و اركبيه و تكانت لذلك الملح، وأكثرهم يشتريه من مدينة شنقيط وربما ذهب بعضهم إلى محل السبخة فأخذه منها ثم يباع جميعه في السودان.

أما العبيد التي يأخذها أهل الملح فإنهم يرجعون بها إلى أهلهم فما كان الشخص مدينا به منه سلمه إلى من يطلبه وما ليس بمطلوب منه فان شاء باعه في محله , وان شاء جلبه إلى أرض القبلة . ويمسك من السيد ما يحتاج إليه والمسافة بين السودان وبين محله متفاوتة فمنها شهر ومنها ما هو أزيد وكلما توغل صاحبه في السودان يكون أروج له.

وفي المقابل يبتاع التجار القماش المعروف بالأكحال ويسمونه الأنصاف، وأردية يسمونها "دماس" وديسة، وبنائق تبنى منها القبب، ويسمونها أجيف، و"الدخن" المسمى عندهم بالبشنة وكرته المعروفة عند المصريين بفول السودان.

أما مواد التبادل التجاري عديدة ومنها العلك، المعروف عند المشارقة بالصمغ. وبهم طريقة في كيفية اجتنائهم له، وهو سلعة أساسية استأثرت على مواد التبادل التجاري من سبعينات القرن 18 م، ويتم تسويقه إلى فرنسا[1]، ويؤخذ منهم عوضه من القماش المسمى عندهم بالخنط وهو أنواع: أسود وأبيض وأخضر. إضافة إلى مواد أخرى مثل الدخن والسكر والعسل في شكل دبس جيد ، أما عسل النحل فهو قليل و يسمونه عسل لعماله .

[1]- محمد المختار ولد السعد، إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703 إلى 1860، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2002. ص 377.

يذكر المؤرخ خليل النحوي أنه منذ سقوط دولة الزوايا (يقصد حركة ناصر الدين)، تمكن الفرنسيون من توقيع اتفاقيات تجارية مع بعض الأمراء الموريتانيون، وكانت تحدد رسوما وتحمل عنوان "الجزية " يتلقاها الأمراء مقابل السماح لفرنسا بحق التجارة، وتضمنت بنود الاتفاقيات مقدار الجزية التي كانت متذبذبة فتتراجع من حين لأخر في ضوء ميزان القوة المتغير فيخفف مقدار "الجزية" أو يثبت، وكذلك الشروط الأخرى التي يفرضها الأمراء على الفرنسيين وهيمنة التجار الأوروبيين وتأييد الأمراء الذين يواجهونهم[1].

ونظرا لتزايد اهتمام الأوروبيين بتجارة الصمغ وما حققته من أرباح للطرفين فقد أصبح لأمراء الإمارات الموريتانية مثل الترارزة والبراكنة ممثلون تجاريون يتولون عملية التجارة مع الأوربيون وعرف هؤلاء باسم كاتي Cati، كما كان التجار الأوربيون يتجمعون مرة كل عام للصعود في نهر السنغال والإبحار حيث توجد "جالام" وفيها تتم عملية مبادلة السلع مع الموريتانيين.

ب- التجارة الداخلية:

أهم المبادلات التجارية في الأسواق اليومية والأسبوعية تمثلت في الملح، والماشية ومنتوجاتها، والأقمشة التي هي من نسيج السودان. وكانت العملة في ولاتة وشنقيط بمثقال الذهب لاتصالها تجاريا بتنبكتو والصويرة، أما في الجنوب فكانت العملة الفرنك بسبب العلاقات بالأوربيين.

أما داخل البلاد فكانت هنالك عدة وسائط للتبادل منها :

- البيصة [2] أو الحوض والميلس، والبنيكة أما سعر البيصة: فأغلب أن يعلم بالغنم. فيقولون كم ثمن البيصة من الغنم، فيقولون ثلاث جدعات أو نحو ذلك [3]. ومن البقر التافكيت بمعنى التبيعة؛ أما إذا كانت القيمة من البقر والغنم، فيقولون ثمن هذا الجمل أربع تيفكاتن مثلا.

استفاد كل من رؤساء الترارزة والبراكنة من ثروة طائلة بسبب توفير السفن والتوسط بين أهلها وبين المواطنين، وأكثر تجارة رواجا هي تجارة العلك.

خلاصة: ما يميز الاقتصاد الموريطاني هو بالأساس تداخل العمليات الإنتاجية بين القطاعات والمجالات الاقتصادية فالفلاح يكون راعيا لأغنامه وصيادا للأسماك ويحترف مهنا تقليدية. كما أنه يمكن الحكم عليه انه طابع جد تقليدي، في المقابل زخرت المنطقة بالموارد الطبيعية مما جعلها مطمعا للمستكشفين والمستعمرين.

---

[1]- خليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس،1987، ص 320.

[2] البيصة : وحدة من القماش.

[3] أحمد الشنقيطي بن الأمين الشنقيطي ،الوسيط ،ص 522.